أبو العلاء المعري

شاعر أم فيلسوف ؟

— ١ —

بين الشعر والفلسفة صلة وثيقة . فكلاهما يعتمد على الحقيقة . ويحاول ادراك الاشياء ادراكا حراً صحيحاً عميقاً . ثم يعرضه باسلوبه الخاص .

فإذا كان الفيلسوف يجعل همه درس الاشياء ليعرف ماهيتها وما بينها من صلات بحيث يؤثر هذا الدرس في سلوكه ويكسبه براعة في فهم الامور ومعالجتها فإن هم الشاعر أيضاً أن يظفر بهذا الدرس نفسه ثم يؤدي ثمرته فكراً صائباً وشعوراً صادقا .

— ٢ —

هذا هو الاصل العام الذي يجمع بين الشاعر والفيلسوف . ومنه يظهر أن موضوعهما واحد : الله ، والانسان ، والطبيعة .

وإذا كان هناك ما يميز بينهما فذلك يكون في الطريقة . طريقة التناول والاداء . فالفيلسوف يؤدي الحقيقة عارية خالصة . والشاعر يؤديها مغمورة في الشعور .

والفيلسوف يتناول الاشياء مؤثراً باحثاً مقرراً والشاعر يتناولها متأثرا ناقدا مصورا . كل منهما يعالج الشعور الانساني . إلا ان الفيلسوف يدرسه مستقلا عن عقله كأنه مادة حسية خاضعة للتحليل الكيمياوي ولكن الشاعر يعالجه ممزوجا بعقله ويضفيه على فكره ليذيبه فيه . فالشعور عند الاول شيء خارجي بخلافه عند الثاني .

كذلك الخيال فإن كان فروضاً علمية فهو اداة الفيلسوف وإن كان مُصوّراً مبدعا كان لغة الشعور وميزة الشاعر ،

بقيت لغة الرجلين . فاللغة عامة رموز مبهمة قاصرة لا ضبط لمدلولاتها إلا في الأعلام وأسمـاء الأماكن . أما المدلولات المعنوية فلا تستطيع اللغة ضبطها ضبطا دقيقاً بهذه الألفاظ . ومع ذلك فلغة الفيلسوف أدق دلالة وأضيق تحديداً واكثر اصطلاحا لاعتمادها على معانيها الوضعية أو القاموسية ، ولكن لغة الشاعر دونها في هذه الاوصاف لأنها تؤدي معاني ثانوية لازمة يحملها عليها الشاعر بمـا يتصوره في الاشياء ، لذلك كان من حق الشعراء أن يحوروا في مدلولات الألفـاظ تحويرا واسعاً لتستوعب المعاني الفنية التي تدور في نفوسهم . ومن هنا كان الخطر الكامن في تفسير الشعر بهذه اللغـة العادية التي ترد في المعاجم .

كل من لغتي الشاعر والفيلسوف أدنى إلى القصد والايجاز إلا أن إيجاز الشاعر من باب الرمز والاكتفاء وايجاز الفيلسوف من باب المطابقة والتحديد الدقيق . لغة الفيلسوف مقيدة لأنها وسيلة ولغة الشاعر أكثر حرية إذ هي عناية لابد ان يتوافر لها قسط من الجمال الموسيقي الذي يلائم ماتؤديه من شعور صادق وحقيقة ناصعة . وأخيراً لاغنى للشعر عن الفلسفة ليكون قيم المعاني خالدا بجانب جماله الفني الأصيل وعلى الشاعر أن يكون فيلسوفا أولا ليقيم فنه على أساس من الصواب والعمق ، فاذا ما دخلت الفلسفة مجال الشعر وخضعت لصياغته الفنية صارت سهلة مستساغة . وامتزاجهما معا هو المثال الكامل في الآداب .

وهنا نذكر ماقاله ابن رشيق : « والفلسفة وجر الأخبار باب آخر غير الشعر فان وقع فيه شيء منها فيقدر . ولا يجب أن يجعلا نصب العين فيكونا متئكا واستراحة . وإنما الشعر ما أطرب وهز النفوس وحرك الطباع . فهذا هو باب الشعر الذي وضع له لا ما سواه » . (١)

وهذا النص يوحي الينا بأمور :

منها أن مقياس الشعر الاول هو الانفعال وأما الثقافة او الافادة فليست من باب الشعر على حد تعبير ابن رشيق .

(١) العمدة ، ج ١ ، ص٨٣ مطبعة السعادة سنة ١٩٠٧

ومنها أن الفلسفة لذلك أدب آخر غير أدب الشعر لقيامها على النفعية العقلية . وخير لها الا تتصل بالشعر إلا لماماً ما دامت غير مؤثرة ولا مطربة .

ومنها ان النقاد السابقين فهموا الشعر على انه ضرب من التصوير غايته التأثير واتخذوا البحتري مثال ذلك بخلاف الحكيمين ابي تمام والمتنبي . ولعل الجاحظ من شيوخ هذا الرأي .

وعندنا أن هذا الرأي يذكر للشعر صفة أساسية هي أظهر صفاته ولكنها ليست وحدها أهم ما فيه فان جانب الفكرة خطير في الشعر لا يستقيم له تأثير بدونه . . والواقع أن الشعر ضرب من التفكير والتصوير والتعبير .

فإن أراد ابن رشيق بالفلسفة هذه الحكمة العارية والتقرير العلمي فله عذره ولاأدري إذا كان قد وضع نصب عينيه هو هذه الصور الثلاث في الشعر العربي

(١) صورة البحتري بجمال تصويره وحسن تعبيره .
(٢) وصورة المتنبي بحكمته الشائعة وعبارته القوية .
(٣) وصورة المعري بفلسفته الخالصة وأسلوبه التقريري .

— ٣ —

وإذا رجعنا الى تاريخ الشعر العربي لم نجده يخلو من النظرات الفلسفية في كل خطواته لأن التفكير الشعري هو تفكير فلسفي أيضاً . ولكنا نقصد الآن إلى الاشارة الخاطفة إلى بعض المعالم الواضحة التي عالج فيها الشعر العربي رأيا واضحاً أو مذهباً مستوياً من جانب الفلسفة .

(١) ومن أقدم ما عرفنا من ذلك ما قال طرفة بن العبد في معلقته إذ تناول باسلوبه الشعري مذهبه في الالحاد والشك في الآخرة والسخرية بالمتحرجين حوله . والحرص على اللذة متهالكاً عليها . ولقد كان طرفة في عرضه هذا مثال الشاعر الذي جمع بين وضوح المذهب وقوة العقيدة وصدق الشعور ، وكان لذلك صداه في أسلوبه الموسيقي الرائع . وكان امتزاج الفلسفة بالشعر عنده مثالا كاملاً عرفناه فيما بعد عند أبي نواس من المستهترين .

ومن المناسب ان نذكر هنا زهير بن أبي سلمى حين دعا إلى السلم أيام الجاهلية الحمراء ثم طائفة الصعاليك من الشعراء الذين ثاروا على اثرة الأغنياء في الجاهلية وصوروا نزعتهم هذه بشعر قوي جميل .

(٢) وفي القرن الثالث الهجري لما أخذ الشعر في سبيل الحضارة ظهر أبو تمام وأخذ يفلسف الشعر وإن لم يكن هو فيلسوفاً وبذلك صار رأس أصحاب المعاني في الشعر .

ظفر أبو تمام بثقافة ممتازة من فلسفة ولغة ودين ونحو وأدب وتاريخ وعقائد وقد ظهرت معالم ذلك في شعره .

ثم وهب ذكاء نادراً ، وحساً دقيقاً ، وإخلاصاً لفن الشعر عميقاً يتكيء فيه على نفسه ويذيب له مخه في سبيل تنميقه وتجويده وتوليد معانيه ليكون فناً جميلاً نافعاً يجمع بين جمال التصوير وعمق التفكير .

لذلك شاعت في نظمه معان غريبة وحكم منثورة في ثنايا قصيده فعد بذلك أحد الحكيمين وصاحب مذهب التجديد لما عد البحتري شاعر المحافظة أو عمود الشعر .

ولكن أبا تمام أصيب بعد ذلك بالغلو في البديع فاعتمد على الجناس والطباق ، والاستعارة فوق الغريب من اللفظ والطريف من المعاني فأفسد بتكلفه هذا قسماً من شعره غير قليل ، ولعل هذا التكلف كان خطوة أولى للزوميات أبي العلاء وإن اختلف التكلف بينهما فمرده عند أبي تمام الترقيش الفني وعند أبي العلاء الرصف اللغوي .

وبذلك اجتمع في شعر أبي تمام خواص كونت شخصيته الفنية من معان جديدة ، وصور بديعة . وألفاظ غريبة ونقل للشعر من فن للتصور إلى فن للتصوير والتفكير . والذي يعنينا هنا أنه كان خطوة جريئة في استحالة الشعر العربي — أو الاسلامي — لما زاوج بين الفكرة الفلسفية وبين الصياغة الفنية ولقي عناء ذلك لأخذه المسألة بقوة صارمة ، فهذا شيء . . وشيء آخر هو أن حكمته قليلة منثورة في قصائده وأن الفلسفة عاشت عنده على هامش الشعر لم تغمره ، وان ذكاءه كان العامل المباشر في معانيه التي

سماها الناس فلسفة ، وأنه لم يحفظ للشعر مكانته فتكسب به ، وإن حفظ له صنعته الدقيقة كما قال : —

خذها مثقفة القوافي ، ربها لسوابغ النعماء غير كنود
حذاء تملأ كل أذن حكمة وبلاغة وتدر كل وريد
كالدر والمرجان ألف نظمه بالشذر في عنق الكعاب الرود
كشقيقة البرد المنمنم وشيه في أرض مهرة أو بلاد تزيد

(٣) وجاء القرن الرابع ومعه المتنبي تلميذ أبي تمام فظفر كذلك بثقافة عريضة لغوية ، ودينية وصوفية وفلسفية فوق ما أفاد من تجارب وألم من حكم أرسطو .

وقد تمثل هذه الثقافة في ديوانه وصارت الحكمة أو المعاني الفلسفية جزءاً من كيان فنه الشعري تحيا داخله وتقومه وبذلك نجد الفلسفة عنده أدخل في الشعر منها عند أبي تمام كما نجدها محافظة على قوالبها إلى درجة ملحوظة . فالتناسخ والحلول والمجوسية والمانوية وغيرها صريحة عنده يوردها مرتبطة بمعاني الشعر على أنها أقيسة فنية أو براهين منطقية .

وكذلك الشأن في حكمته التي اكتسبها من تجاربه أو اقتبسها من المعلم الأول ، فانها ترد في ثنايا قصيده ذات اعتبارين : مستقلة أو كأنها مستقلة في صياغتها الفلسفية فهذا وجه ، ثم هي خاضعة لتيار القصيدة العام ولجوها ، وهذا من شأنه أن يكسبها إلفاً ويخفف من طبيعتها الأصلية .

وأسلوب المتنبي لم يسلم هو أيضاً من الغريب البدوي ، والاصطلاح العلمي ، والشذوذ في العبارة حتى غاظ النحاة وأعنت اللغويين ، وصار له نحو خاص . . ، ذلك لانحراف عبارته عن الصياغة المألوفة حتى قال أنصاره إن صناعته كوفية . . ولعل أبا الطيب كان يتعمد ذلك جرأة منه وتحدياً للنحويين .

وناحية هامة نشير اليها دون تفصيل أيضاً هي أن المتنبي كان أستاذ أبي العلاء الأول المحبوب سواء في ناحيته الفنية والفكرية أي أنه كان أستاذه في الشعر والحكمة جميعاً ، فكان أبو الطيب مثال المعري في نظم

الشعر أيام صباه وشبابه . وإن كثيراً من المعاني التي احتفل بها أبو العلاء موجودة عند أبي الطيب .

إلا أن أبا العلاء كثيراً ما كان يأخذ المعنى وينحرف به عن طريق استاذه لما كان بين المزاجين من فروق . . فالمعري مثالي والمتنبي واقعي .

وخلاصة ما نذكره هنا عن المتنبي أنه لم يكن فيلسوفاً وان تفلسف في شعره ، وقد وردت حكمته في مواطنها المناسبة دون أن تنظم فصولاً ومقطوعات ، وأن ذلك مع قوة صياغته جعلها مقبولة وكسا من عريها الفلسفي الأصيل .

المتنبي ضاعف ما سبقه إليه أبو تمام واجتمع في شعره أشياء كانت مقدمة التحول النهائي الحاسم الذي نهض به ابو العلاء في هذا المضمار .

— ٤ —

فماذا فعل المعري ؟ وبم امتاز ؟

(١) حظي أبو العلاء بثقافة هي خلاصة الثقافة الإسلامية في القرن الخامس ، فكانت لغوية نادرة ، ودينية إسلامية ومسيحية ويهودية ومجوسية وأدبية وفلسفية وتاريخية ، فيها التنجيم والتصوف ، وفيها من كل شيء ، فكانت يونانية وفارسية وهندية مما فاض به شعره ونثره .

(٢) بدأ حياته الشاعرة بتقليد المتنبي أستاذه المفضل فأخذ يحذو حذوه منذ صباه وفي شبابه أيضاً ، وبدت علامات هذا التقليد باستعمال الغريب وفي الأخذ بالبديع ، وفي المبالغة وتناول المصطلحات العلمية والفلسفية والدينية . أنشأ أكثر سقط الزند في شبابه وبلغ في بعض قصائده درجة الشاعر المثالي وبخاصة في مرثيته الدالية المشهورة في أبي حمزة الفقيه لأنه زاوج فيها بين الشعر والفلسفة مزاوجة خالصة دون أن تشوبها شائبة تفسدها من غريب أو بديع أو التزام مالا يلزم فكانت هذه القصيدة من بين شعره

تاجاً على رأسه متألق الجواهر استوت بها عنده صنعة الشعر الأصيل ، فيها جمال الأسلوب الذي استهوى النقاد من البحتري وجعلوه من أجله الشاعر الفذ ، ثم تمتاز بعد ذلك بهذه المعاني الرائعة الدقيقة العميقة ، وبهذا الشعور السامي والأفق الواسع . وعندي أن أبا العلاء كان بهذه القصيدة يرثي الدنيا جميعاً ويقف على هذا البرزخ بين الحياة والموت ، يبكي عدوان الآخرة على الأولى ويعجب لسلطان الموت وسطوته .

ولو أن أبا العلاء اطرد شعره كله أو أكثره على نسق هذه القصيدة ما قُرن به شاعر عربي آخر . وإذاً ، كان يكون أبو العلاء سيد شعراء العربية غير مدافع وأولاهم جميعاً بالمكانة الأولى في هذا الفن الرفيع .

(٣) ولكن أبا العلاء حين اكتملت له شخصية الشاعر الكامل أخريات شبابه ، وانتهى عهد التقليد الفني نجده يتحول عن هذه السبيل تحولاً يكاد يكون عقوقاً لهذه الموهبة الرائعة كما يتحول عن حياته الاجتماعية ويعتزلها رهين المحبسين أو الثلاث ويصبح فى حياتيه الحسية والأدبية إنساناً آخر .

خضعت حياته الحسية لأوضاع قاسية صارمة من الحرمان والزهد في الطعام واللباس وبغض الزواج والنسل ولزوم البيت وتحامي الناس إلا أن يكونوا طلاب علم ، أو زواراً معجبين يلمون به لحظات ، أو يكاتبونه مجادلين . . . حياة أساسها التشاؤم والسخط واحتقار الحياة وإذلالها .

وأما حياته الأدبية فكانت عكس ذلك تماماً ، حرية في التفكير لا حد لها ، وغنى نفسي عزيز صان به نفسه وأدبه ، وتأمل عميق قد يفضي به إلى الحيرة والشك حين يعجز العقل أمام المعضلات ، وهو شك يمس الدين والعقل والحس والخير ، وكانت مناقشاته للديانات تنطوي على سخرية بها وبالأوضاع الاجتماعية وبهذا النفاق الانساني العام .

(٤) وفي هذه السجون الثلاثة نظم أبو العلاء « اللزوميات » في تمجيد الله وتنبيه الناس وقد برأها من الكذب وتوخى فيها الصدق كما قال في

مقدمتها . ومع ذلك فقد ألم فيها بمسائل شتى من الفلسفة الطبعية والرياضية والالهية ثم العملية فوق ما فيها من عظات .

وتأليف هذه اللزوميات — من ناحية الشكل فقط — خاضع لخطة مرسومة ذات أبواب وفصول ولكنها أبواب وفصول شكلية تقوم على حروف الهجاء ، فكل حرف باب من أبواب القافية ، فصوله حركات تلحق هذا الحرف رفعاً ونصباً وجراً ثم سكوناً .

وقد تكلف ابو العلاء في لزومياته أشيـاء أخرى منها اللغوي فلم نجد ديواناً جمع من غريب اللغة ما جمعت اللزوميات ، ومنها العروضي بالتزام حرف أو أكثر قبل القافية فهذه قسوة أدبية وسجن للمعاني والآراء .

ثم استخدم الجناس بين آخر الأبيات وحشوها في مواضع شتى ، وبذلك فاق جميع من سبقوه من أهل هذه الصنعة النظمية والنثرية أيضاً .

(٥) والأمر الخطير أن هذا التعقيد اللفظي لم يكن في صالح الفلسفة ولا الشعر ، إذا جاز لنا أن نعد اللزوميات ديوان شعر — ولعله لا يجوز — فقد كان أحرى بأبي العلاء الفيلسوف أو المتفلسف أن يؤدي آراءه أو مذهبه في عبارات منثورة واضحة قائمة على التقرير العلمي المنظم ليستطيع الشرح والتدليل ثم ليسهل على الناس الأخذ عنه بدلاً من هذا الاغراب اللغوي والتعقيد اللفظي الشاذ .

ولكن أبا العلاء شاعر منذ حين فهل أبت عليه طبيعته ان يترك فنه الأول ؟ وإذا صح ذلك وكان لا بد من وصله بالفلسفة . . فما معنى هذا الترصيف اللغوي والبديعي ؟ ! هذا التعقيد إنما يعجب به الكلفون بحل المعميات اللغوية والذين يعطفون على ابي العلاء ولكنه إعجاب إلى حين يجد الجد وتطلب المعاني لدرسهـا ونقدها فاذا بهم يضيقون به ويعدون حائلا صفيقاً بينهم وبين ما يبغون وأبسط قوانين البلاغة ألا يحول اللفظ دون المعنى وان يوفر جهد القارئ لدرس الافكار وإدراك الصور لا غير ، فاللغة في

باب الفلسفة وسيلة خالصة وهي في الشعر جزء من الغاية على شرط ان تكون غاية من ناحية الوضوح والجمال لا من ناحية الاغراب والتعقيد .

وإذا كان قد سلم لأبي العلاء في لزومياته قطع تحققت فيها المزاوجة بين المعاني الفلسفية والصياغة الفنية فإنها قليلة في هذا الديوان الضخم ، بحيث لا تضفي على صاحبه صفة الشاعر ، إذ غلب عليها التقرير والسرد ، والتكرار والوعظ حتى عاد ديوان نظم . . . وليته ديوان نظم فاسفي خلا من هذه الكلف الكثيرة .

(٦) والذي فات أبا العلاء ، فلم يُعن به ، أن الفلسفة بقيت في ديوانه هذا عارية في الغالب لم يلبسها ثوباً فنياً من أسلوب الشعر كما حاول هو في بعض سقط الزند وكما حاول من سبقه إلى حد كبير . . إذاً ، لبقيت للأسلوب روعته وقوته وذهب عنه الابتذال . والغريب ، أو الطبعي ، أن هذه الكلف نجدها في اللزوميات ولا سيما التكرار المنظومة كما نجدها في اللزوميات المنثورة — أعني الفصول والغايات — وفي اللزوميات المنظومة والمنثورة معاً (ملقى السبيل) فالأفكار معادة فيها جميعاً .

وقد أربى ابو العلاء على سابقيه في استخدام المصطلحات العلمية واتخاذها أقيسة وبراهين ليس فيها جمال الشعر وإن كان فيها ظرف النحويين والفقهاء .

لم أنس أن هناك نوعاً من الشعور يحسه قارئ اللزوميات دائماً ولكنه شعور مصدره العطف على المعري ، وجانب الحياة الحزين الذي سيطر عليه فنشى به آثاره ، وهذه المعاني الحكمية السليمة . .ولكن متى كان الحزن واليأس والفشل غاية الأديب ؟ ومتى كانت الفلسفة سلبية دائماً هدامة ؟

— ٥ —

أمامنا الآن — في باب النظم العلائي — سقط الزند الذي يعد ديوان شعر ابي العلاء ثم اللزوميات ديوان فلسفته ، فأيهما يعد نصه الأصيل ؟ وبعبارة أخرى هل أبو العلاء شاعر او فيلسوف ؟

يذكره فريق من المستشرقين شاعراً فيلسوفاً وان اختلفوا بعد ذلك في تقدير مكانته ولا سيما في الناحية الفلسفية .

يرى نيكلسون Nicholson أنه شاعر فيلسوف سجل في آثاره ميول التشاؤم والحيرة لعصر الانحلال الاجتماعي والفوضى السياسية .

وفون همر Von Hammer يعده شاعراً كأبي تمام والبحتري والمتنبي ويميزه بالفلسفة . وأما فون كريمر Von Kremer الذي عني بدرس اللزوميات فإنه يعد أبا العلاء من أعظم الأخلاقيين « فلاسفة الأخلاق Moralists » وان رأى فيه مرجليوث رجلا شاكا حيران . اراؤه سلبية . وليست أخلاقياته شيئاً بجانب ما أصيب به من شك ويأس ثم يعود نيكلسون Nicholson فيلاحظ ان آثاره خالية من المنهج الفلسفي وان أفكاره شتيت غير منسق . احتواها نظم معقد . لا تخلو من تناقض (١)

أما طه حسين فيرى أنه قد كان فيلسوفاً حقا (٢) وقد أوضح هذا الجانب وبين آراء المعري في كثير من المسائل الفلسفية بناء على ماستخرجه من اللزوميات وهي مسائل تدخل في أبواب الفلسفة الطبيعية أو العلم الادنى والفلسفة الرياضية أو العلم الاوسط والفلسفة الالهية أو العلم الاعلى ثم الفلسفة العملية . وبين مصادر هذه الفلسفة وردها الى الحياة والفلسفة اليونانية والهندية والفارسية ثم إلى الكتب الدينية على اختلافها . . . وهكذا دخل أبو العلاء مجال الدراسات الفلسفية على أنه فيلسوف نظم فلسفته في اللزوميات ونثرها في الفصول والغايات وفي بعض الرسائل ومع ذلك فهناك مآخذ على أبي العلاء الفيلسوف :

(١) أول ذلك أن أبا العلاء لم يبتكر شيئاً في الفلسفة يعد رأيه أو مذهبه أثر به في مجراها العام فان فلسفته إما مأخوذة من أصول قديمة اختارها وآمن بها وإما تأملات في الحياة مردها مالقي من تجارب وأحداث انتهت به إلى مثل

(١) راجع Nicholson · Literary History of the Arabs pp - 315 - 320 .

(٢) ذكرى أبي العلاء ص ٣٣٠ ط ١٩١٥ م

ما انتهت اليه عند الناس فكانت أفكاراً عامة . . ومهما يكن له من تسجيل لها وخضوع في حياته لسلطانها . . فهذه أقل درجات الفيلسوف .

(٢) ثاني ذلك حيرة أبي العلاء وتردده بين الآراء دون أن يقطع برأي في بعض المسائل أوفي رءوسها لذلك دعي عند بعض الأقدمين والمحدثين شاكا ، يؤمن بالعقل وينكره . ويقول بالجبر ثم بالاختيار ، ويتمنى الموت ويفزع منه ، وينتظر البعث ويسخر به .. ولايرد على ذلك اصطناعه التقية والتعمية على الناس ، فهذا ليس شأن الفيلسوف على أن التردد إنما ينتاب الانسان أول الامر ولا يلازمه .. والاصار لا أدريا .

(٣) ثالث ذلك طريقة الاداء وهذه لم تكن فلسفية بحال فقد رأينا أنه نظم فلسفة أو أختار النظم ليقيد بها آراءه والاصل أن تنثر الفلسفة إذ كان النثر لغتها الطبعية ولا يقال إنه نثرها في الفصول والغايات فإن هذا الكتاب أيضاً ليس إلا لزوميات نثرية أصابه من ضروب الإغراب والتعقيد والصنعة ما أصاب زميله . ومهما يعتذر أنصار المعري لهذه الكلف وذاك الغموض فإنها يقللان من قراء المعري وتلاميذه .

وهناك أمر آخر يتصل بطريقة الاداء هو تشتت الافكار وانتثارها هناوهناك بحيث لا تجتمع الافكار المترابطة في باب . هي آراء قد تتفق وقد تتخالف مع ذلك مما يشبه للناس ان آراء المعري خطرات طارئة . بصرف النظر عن قيمتها الذاتية .

هذه الاعتراضات معناها ان الناس ينقمون من أبي العلاء انحرافه عن السبيل الطبعية وتعقيده حياته وأدبه وخضوعه لنوع من الانتكاس في عزلته .

ولكن هذا في الحقيقة أسف غير نافع . وخير لنا أن ننظر الى ابي العلاء كما وجد وان ننتفع به في حدود ما هيء له دون أن نرجو منه مثالا لم تحققه الأيام .

ونتيجة ماسبق ان ابا العلاء متفلسف . وأن إطلاق لفظ الفيلسوف عليه يجب أن يفهم على وضع خاص هو انه درس الفلسفة واصطنعها في حياته لا انه ابتكر في الفلسفة أو أخضعها لسلطانه .

— ٦ —

وفي الجانب الشعري يرى كثير انه شاعر ممتاز وربما عده بعضهم خير شعراء العربية مؤيدين دعواهم ببراهين :

منها انه الشاعر العربي الفذ الذي استطاع أن ينظم الشعر الفلسفي أو يزاوج بين الشعر والفلسفة مزاوجة نادرة . في قسم من شعره حفظت للشعر قيمته وللفلسفة شيوعها وسلطانها ذلك في شبابه وأما شيخوخته فقد أثمرت لنا اللزوميات . وفيها مقطوعات هي مثل في معانيها وعبارتها على الرغم مما قيدت به من لوازم .

ومنها صدق شعره الذي يصور حياته العقلية والعاطفية تصويراً صحيحاً لارياء فيه . وصار الدارس غير محتاج إلى مصدر آخر يصحح به هذا المصدر الأصيل لفهم ابي العلاء ومنها انه نزه شعره عن الاتجار به في سوق المديح فحفظ لفنه مكانته . وهذه المسألة وان كانت شكلية ولكن لها قيمتها في فن الشعر أيضا متى حفظت له حريته وصدق شعوره وفتح بابه للفلسفة ليكون فنا نافعا جميلا .

ومع ذلك فهناك من ينكر على أبي العلاء شاعريته :

يقول ابن خلدون في معرض التعريف بالشعر ووجوب جريه على أساليب العرب المعروفة للشعر : « كان الكثير ممن لقيناه من شيوخنا في هذه الصناعة الادبية يرون أن نظم المتنبي والمعري ليس هو من الشعر في شيء لأنها لم يجريا على أساليب العرب . (١)

ويقول : « ولا يكون الشعر سهلا الا إذا كانت معانيه تسابق ألفاظه إلى الذهن ولهذا كان شيوخنا رحمهم الله يعيبون شعر أبي بكر بن خفاجه شاعر شرقي الاندلس لكثرة معانيه وازدحامها في البيت الواحد كما كانوا يعيبون شعر المتنبي والمعري بعدم النسج على الاساليب العربية كما مر فكان شعرهما كلاما منظوما نازلا عن طبقة الشعر والحاكم بذلك هو الذوق (٢) »

(١) المقدمة ص ٦٥٠ ط التقدم (٢) نفس المصدر ص ٦٥٦

وقبل ذلك قال ابن رشيق إن الفلسفة باب آخر غير الشعر لأنه يقوم على التصوير والتأثير ومرد هذا كله ، هنا ، ان المعري في اللزوميات ناظم لا شاعر لخروجه على الأساليب العربية لفن الشعر وإقحامه الفلسفة والحكمة فيه بدرجة جاوزت المألوف بل بدرجة أحالته نظماً ليس من الشعر في شيء .

ومعنى الأساليب العربية عند ابن خلدون هو الطبيعة التي جرى عليها الشعر العربي منذ نشأته إلى عهد أبي تمام ثم المتنبي والمعري . وهي طبيعة غلب عليها جمال التصوير وحسن التعبير المفضيان بالشعر إلى أن يهز النفوس ويحرك الطباع ومثال ذلك عند هؤلاء النقاد هو البحتري وأما المتنبي والمعري فقد خرجا على هذه الاساليب بما أكثرا من الحكمة في الشعر أولا . ثم بما ادخلاها عارية أوتكاد محافظة على قوالبها العلمية التقريرية ثانيا فعاد بها قولهما نظما ليس من الشعر في شيء .

هذا المقياس كما قلنا ليس بخاطيء إلا من ناحية ضيقة وقصوره عن الشمول ولا سيما حين مثلوه بالبحتري تاركين سلسلة أبي تمام وصاحبه . فالشعر مقبول لحسن تصويره وجمال تعبيره كما هو الشأن عند البحتري . ولكنه مقبول أيضاً لسلامة تفكيره وقوة أسلوبه كما هو الشأن عند الآخرين . . فهذا وجه . وأما ناحية التأثير التي جعلوها مقياسا لجودة الشعر فلا شك أنها تتوافر في شعر أبي تمام والمتنبي وقسم من شعر أبي العلاء .

المسألة ، إذاً ، مسألة هذه الفلسفة العلائية واحتلالها ميدان الشعر فأما إلى حدّ اتصالها بالشعر فهذا شيء طبعي بل هو الاصل وإنما الكلام بعد ذلك في مسألة الكم والكيف . أي إلى أي مدى يتسع لهاهذا الفن الرفيع ؟ وكيف يستسيغها أو كيف يعرضها على القراء ؟

لا شك أن كثرتها تؤثر في جمال الشعر وقوة تأثيره وخير أن يأخذ منها هذا الفن باعتدال ، لا يقل حتى يعود الشعر صوراً وعبارات فقط كما قال الأقدمون ولا يكثر حتى يعود الشعر نظماً ثقيلاً مملولا . . على أن المسألة في الحقيقة مسألة الكيف وهي طريقة العرض فان كانت الفلسفة عارية خالصة

تقريرية كانت النتيجة ذلك النظم الذي يضيق به الناس جميعاً ويتجاوز دائرة الشعر ، وإن كانت معروضة في صياغة فنية ، بحيث تذوب الآراء في أساليب الفن فانها تكسبه قوة ولا تفقده الجمال .

ولا شك أن الأقدمين كانوا على صواب حين وجهوا نقدهم الى اللزوميات أو الى كثرتها على أساس المقياس الشعري فوجدوا فيها رسما فلسفيا وقيوداً لغوية عروضية بديعية يمقتها الشعر ويمجها الذوق . . ولكنهم لم يضعوها على مقياس النظم الفلسفي ، ولعلهم ـ لو فعلوا ـ كانوا يرون فيها رأياً آخر أدنى إلى الانصاف وأقرب الى مزاج أبي العلاء وما أحاط به من مؤثرات . وعلى كل فهذا رأي القدماء في شعر أبي العلاء ، وهذا ما نراه نحن بحيال ما رأوا ، فهل هذا كل ما يؤخذ على أبي العلاء في لزومياته ؟

هناك مآخذ أخرى متصلة بأبي العلاء الشاعر . فاذا أخذنا اللزوميات جملة لاحظنا هذا التكرار الكثير الذي يصرف القارئ ويخيل إليه ان المعري ضيق المادة الفكرية ، وقد يكون من دواعي هذا التكرار اضطرار أبي العلاء أن يملأ فصول ديوانه التي أدارها على حروف الهجاء وحركاتها الاربع . ولكن متى كان التعقيد مبرراً للتكرار ؟ ومتى كان عيب يسيغ عيبا ؟ وهناك التشاؤم الذي يطبع هذا الديوان طابعاً أسود ويشوه الحياة أمام الناس : أيصلح أن يكون مادة لديوان كامل ، أم أن وظيفة الشعر تهذيب النفوس وحملها على الرضا واحتمال الحياة وإشاعة البهجة والسرور ، أم أن شيئاً من البكاء لازم لتصفية النفوس وتحقيق الاتزان في الحياة وبخاصة اذا كان ذلك عن طريق هذا الفن الرفيع ؟ مهما نقل من ذلك أو نبرره بأن وظيفة الشعر هي التعبير لاغير ، فان أبا العلاء ساخط حزين نخشى أن يبعث اليأس في النفوس ، ويسلط عليها الأمل الضائع ، والألم المقيم. وقد ذكرنا هذا التعقيد اللغوي والعروضي والبديعي . وما قد يجوز على المعنى فيقصر أو يبتر في سبيل هذه اللوازم ، وانما نلاحظ مع ذلك أن معاني أبي العلاء المتناثرة التي حشدها في لزومياته أحالت قصائده مجموعات من الأبيات المتناثره أيضاً ، بحيث لا نجمعها ، في الغالب ، إلا وحدة البحر والقافية . وبحيث أثر ذلك على وحدة القصيدة وتنسيقها العام .

هذه المآخذ تؤثر حتماً في مكانة المعري الشاعر . وتجعلنا نسأل أنفسنا : هل تكفي بعض قصائد في سقط الزند لتضع أبا العلاء في صف الشعراء الممتازين ؟ هل نستطيع أن نعد اللزوميات ديوان شعر وبها يكون أبو العلاء من رجال هذا الفن الرفيع ؟ وهناك مستشرق آخر هو الاستاذ — دي بور De Bœr — تناول أبا العلاء الشاعر الفيلسوف فقال : « غلا البعض في رفع شأن أبي العلاء المعري (٩٧٣ — ١٠٥٨ م) فعدوه شاعراً فيلسوفاً وجعلوه في مكانة لايستحقها . نعم لأبي العلاء في بعض الاحيان آراء معقولة وعواطف خليقة بكل احترام ولكنها ليست فلسفة . وليس القالب الذي صيغت فيه ، بما فيه من تكلف وبما يغلب عليه من ابتذال ، بالذي يسمو إلى منزلة الشعر ، ولو أن أبا العلاء عاش في ظروف خير من التي عاش فيها [كان ضريراً ولم يكن غنياً] لكان من المحتمل أن يقدر على الاجادة في شيء من النقد الاولي الذي يقوم على نقد الألفاظ ، وهو ، بدلاً من أن يدعو إلى محبة الحياة ، دعا إلى الزهد في ملذاتها ، وكان متبرماً بالأحوال السياسية بوجه عام ،وبآراء العامة في الدين، وبمزاعم الخاصة في العلم . غير انه لم يستطع أن يأتي في ذلك بجديد . ويكاد ابو العلاء يكون خلواً من كل مقدرة على ربط الاشياء بعضها ببعض . لقد كانت له مقدرة على التحليل ، أما التركيب ، فليس له منه نصيب . وتعاليم ابي العلاء عقيمة ، وعلمه كشجرة أصلها في الهواء كما قال هو في بعض رسائله وان لم يقصد أن يقول ذلك عن نفسه (١) »

لاشك ان دي بور وقف عند اللزوميات وأخذها جملة على أنها ديوان شعر ، ثم كان مثالياً في نقد أبي العلاء الفيلسوف الشاعر .

— ٧ —

والآن نجد أبا العلاء حيران بين الشعر والفلسفة ، فأين نضعه ؟

قد يكون من السهل أن نجمع له بين الوصفين . فنعده فيلسوفاً لهذه الآراء التي أشرنا إليها ، ونعده شاعراً لقصائد في سقط الزند ومقطوعات من اللزوميات.

(١) تاريخ الفلسفة في الاسلام ص ٧٧ من الترجمة العربية .

وقد يكون من الجائز أن ننفي عنه الوصفين ، لقلة روائعه الشعرية مع كثرة آثاره النظمية فلا يكون من الشعراء المعدودين ، وان نقف عند تردده وعدم ابتداعه، فلا نعده من الفلاسفة الأولين .

ولكننا نعود فنسأل : لم يقرأ المعري ؟ ألأسلوبه الفني الرائع أم لأفكاره وتأملاته ؟

لاشك أن الناس يقرأون أبا العلاء في الاصل والاكثر لجانبه الفكري ، وحكمه الخالدة وشكوكه الرائعة . فهذا هو السبب الأساسي لإقبال الناس عليه وصبرهم على لزومياته .

ونتيجة ذلك :

أننا إذا قسنا أبا العلاء بمقياس مثالي كان أبو العلاء متفلسفاً .

وأما إذا حكمنا عليه بمقياس مقتصد فإنه يكون فيلسوفاً .

القاهرة في { أول شوال سنة ١٣٦٣ هـ / ١٨ من سبتمبر سنة ١٩٤٤ م

أحمد الشايب